مـدخـل:

حياة المتنبي وأثرها في بروز الأنا.

❶ الحياة العامة:

أ. الحياة السياسية :

"سير وأمطري حيث شئت فإن خراجك سيأتي "هكذا خوطبت الغمامة يوما. الزمان يومها كان عباسيا والمكان كان عباسيا والخلفية - المخاطب - أيضا كان عباسيا إنه الخليفة الراشد هارون الرشيد.

يومها كانت الإمبراطورية الإسلامية كتلة واحدة لا تغيب عنها الشمس، يحكمها خليفة واحد هو الذي يسير شؤونها ويعين ولاتها وإليه يجيء خراجها وإليه ترجع في إدارتها وقضائها وجندها وحل مشاكلها لكن دوام الحال - كما يقال - من المحال مع مرور الأيام أصبحت السلطة تفلت تدريجيا من أيدي الخليفة حتى تمزقت الإمبراطورية الإسلامية وتفتت شملها. فما كاد ينتهي النصف الثاني من القرن هـ حتى رأينا الأندلس يحكمها الأمويون، وبلاد المغرب يحكمها الأدارسة وظهر البويهيون في الري والحمدانيون في حلب والإخشيديون في مصر وبدأ التنافس بين هذه الدويلات على أشده حتى كاد أن يتحول إلى حروب وفتن في بعض الأحيان، فلم يعد يبقى للخليفة في بغداد سوى سلطة معنوية تمنحه ذكر اسمه في المساجد وفي بعض منابرها فقط ويكفي للدارس أن يقوم بعملية إحصائية لعدد الخلفاء الذين تربعوا على عرش الخلافة العباسية حتى يقف بنفسه

على الفساد السياسي آنذاك بل يكفي أن يعلم الباحث أن من بين هؤلاء الخلفاء[1] من بقي في الحكم مدة قياسية قدرت بيوم ونصف فقط " فكان من الطبيعي والأحوال هكذا أن يكثر الأدعياء الثائرون والمغامرون وأن يطمع بالعرب كل عدو حادق كالفرس والروم والزنج والأحباش"[2] وغيرهم.

وكنتيجة حتمية لكل ذا وذاك ظهر الصراع السياسي بألوانه المتعددة :

1. صراع حزبي بين الشيعة المطالبة بالخلافة وبين العباسيين المستأريين بها.
2. صراع داخل الأسرة العباسية نفسها.
3. صراع العرب والفرس "فأبو مسلم مثلا يقتل على يد المنصور".
4. صراع بين العرب والروم ظهر على أشده في عصر المعتصم وسيف الدولة.
5. صراع بين العرب والفرنجة كان مسرحة الحروب الصليبية.

ب . الحياة الاجتماعية :

كان طبيعيا أن ينجر عن تلك السياسة الفاسدة مجتمعا متوترا ومضطربا في كل جوانبه. وهكذا وبعد تقسيم الإمبراطورية العربية إلى دويلات غير عربية ظهر ذلك الاحتكاك والامتزاج الجنسي بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى فتزوج العربي بالفارسية مرة وبالروسية أخرى وتزوج الفارسي والروسي بالفتاة العربية وشيئا تبدلت الحياة البيئية من مطعم وملبس وأدب سلوك وأصبح المجتمع العربي خليط من العادات والتقاليد فلكل تقاليده وعاداته الخاصة به. يؤثر بها تارة ويتأثر فيها تارة أخرى.

---

1. هو الخليفة ابن المعتز حكم في سنة295 هـ وهناك القاهر الذي حكم يومين فقط.
2. خليل شرف الدين: المتنبي المؤسسة الأدبية الميسرة منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت ط1982.

وشيئا فشيئا ظهر جيل له عمومة عربية وخؤولة فارسية أو رومية. ولم تقف الأحوال عند هذا الحد بل برزت ظاهرة أخطر من كل ذا وذاك وهي ظاهرة "التعرب" "فلقد بلغ من إعجاب المولى بالعرب أنهم كانوا يلفقون لأنفسهم أنسابا عربية. وهكذا أصبح المسلمون من الترك والفرس والروم يشعرون شعورا قوميا عربيا، فالعربية أصبحت لغتهم والتاريخ العربي تاريخهم والحياة العربية حياتهم"[1] وبهذا لم يعد للحسب ولا للنسب تلك القيمة التي كان يوليها العربي لهما أيام زمان "فالعرب كما هو معلوم بدو رحل ينتقلون من مكان إلى آخر لا يذكرون إلا صلة النسب"[2] لكن دعاهم النزول في الحضر إلى الترف واللهو وإلى ضياع كثير من محامدهم الأولى من فطرة خيرة وشجاعة باسلة، واستبدلت بكثير من مساوئ المدينة كالشراب والانغماس في اللذات. وإلى جانب كل هذا ظهر الإقطاع بأنيابه الزرقاء واتسعت رقعته وتوالت الضرائب المرهقة لكاهل الشعب فبرزت المجاعة وكثر الشاحذون واللصوص وقطاع الطرق. بينما نجد في الجهة لمقابلة قلة قليلة حاكمة مستبدة ينعم تحت ظلها الحكام "ومن شاء أن يعيش على موائدهم بل من شاءوا هم أن يؤكلوه من موائدهم"[3].

هذه الطبقة كان لها الحق في أن تملك ما تشاء لها من الجواري والعبيد ويتزوجون بمن شاءو وبأي عدد شاءو ـ وبهذا كله تكونت

---

1. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية. دار الملايين ط2 1975م. ص 457.
2. المصدر نفسه.
3. طه حسين: **مع المتنبي**. دار المعارف بمصر القاهرة.

تلك المعادلة غير العادلة في ظل حكم إسلامي عادل ـ وهكذا تلاقى النقيضان في المجتمع العباسي. غنى وترف في الطبقة الحاكمة. حيث القصور والأموال وكثرة الجواري والغلمان والحانات، أضف إلى ذلك شذوذ أخلاقي تسرب حتى إلى الأدباء والشعراء. وفقر وحرمان عند الأغلبية المطلق.

جـ. الحياة الدينية :

لم تكن الحياة الدينية بأوفر حظ من سابقاتها بل ظلت تابعة لها في كل شيء فكنتيجة حتمية إذن لمجتمع مضطرب وسياسة فاسدة كنت تجد المسلم جنبا إلى جنب مع النصراني واليهودي والصابي والمجوسي والبوذي، فكان التنافس في العقائد والأهواء والميول وظهر مجموعة من الناس اعتنقوا الإسلام نفاقا ثم نفثوا فيه سمومهم وأدخلو عليه ما ليس فيه من خرافات وغيرها. كما وضعوا بعض الأحاديث وادعوا على رسول "صلى الله عليه وسلم" ما لم يقله وكما تعددت المذاهب الدينية المعادية للإسلام، تعددت المذاهب الإسلامية نفسها فكان هناك الشيعي والسني والمعتزلي. وهكذا لقد بلغ التمزق الطائفي حدا دمويا واستغل الدين أبشع استغلال لتأييد السلطان أومعارضته فكثرت صناعة الحديث وصناعة الروايات المكذوبة وتخاصم الناس حول تلك الأحاديث والروايات ولقد ذهب "بلاشير" إلى اعتبار أن العامل الرئيسي في سقوط الخلافة العباسية كان العامل الديني بل يذهب إلى حد التركيز على الحركة القرمطية وحدها. وهي الحركة التي أنتسب إليها المتنبي نفسه ولست هنا في مجال أؤكد

فيه هذا الأمر أو أنفيه فالموضوع قد قتل بحثا لكن يكفي أن أشير إلى أن هذا الأمر كان قد شكل بحثا مستقلا لصاحبه محمد محمد حسين تحت عنوان "المتنبي والقرامطة" المهم هذه الحركة ظهرت أواخر القرن الثاني وانتشرت تحت قناع الإصلاح وتدريجيا وبطريقة عقلانية تكاثر معتنقي المذاهب لأنها وجدت عونا لها في عقلية السكان الذين بهم المجاعة والأوبئة والذين أثقلتهم الضرائب وأدهشهم الإقطاع و الإقطاعيون وأبهرهم ترف البلاط الخليفي "فلم تعهد أي حركة مثل هذا الاتساع ولم تعرف سواها عقدية ذات أصول أكثر تهديما"[1].

ومع مرور الأيام كان القرامطة قد ثبتوا أقدامهم في شرقي الجزيرة وفي البحرين والخليج العربي وفي كل بقعة من بقع الدولة العباسية ومن هنا وهناك توالت هجماتهم التي أنخرت الخلافة العباسية جملة وتفصيلا.

1. ريجيس بلاشير: أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي. ترجمة إبراهيم الكيلاني ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.

obeikandl.com

❷ الحيـاة الخـاصـة:

أ. مولده وثقافته:

في سنة ثلاث وثلاثمائة " 303 هـ" وفي حي من أحياء الكوفة عرف باسم"كنده" ولد أبو الطيب أحمد المتنبي بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي "من بني جعف بن سعد العشيرة بن مذحج من اليمن عرب الجنوب"[1] كانت سنواته الأولى طفل فقير يعيش عبث الأطفال ولهوهم في الأذقة لكنه مع مرور الأيام وفي وقت مبكر بدأ يتميز عنهم بذكاء خارق ورصانة وميلٍ للعلم فكان من قدره أن يدفع ثمن فقره وفي سنواته الأولى. فشارك أولاد الأشراف مقاعد الدراسة. ومن هناك بدأت تلك المضايقات التي يتلقاها عادة أبناء الفقراء من لدن أبناء الأغنياء "ولعل هذا اللقاء الأول مع الناس ـ وإن كنا لا نبغي المبالغة في أهميته ـ منشأ نفور أبي الطيب من البشر"[2].

فقد أحمد أباه وهو صغير. كما يرجح أيضا أنه فقد أمه بعد أبيه أوقبله لكن مع هذا فقد نشا في أحضان جدته لأمه. ثم سافر بعد هذا إلى البادية فصحب الأعراب مدة سنتين فزاده كل ذلك تضلعا في اللغة العربية حتى صار لا يستشهد إلا بكلام العرب وأمثالهم وما يروى عنه قصته مع أبي علي الفارسي(377) "الذي قال له يوما كم لنا من الجموع على وزن

---

1. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية. ص 457.
2. بلاشير: أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ص 42.

فعلي فقال له في الحال حجلي وظربي، قال الشيخ أبوعلي الفارسي فطالعت كتب اللغة ثلاث ليل على أن أجد لها ثالثا فلم أجد"[1] ساعده في كل هذا ذكاء حاد وذاكرة قوية فكان ملازما للورقين وحدث مرة أنه تجادل مع أحدهم حول حفظ كتاب من ثلاث وثلاثين ورقة فنجح أحمد في التحدي وحفظ الكتاب سطرا سطرا وفاز به.

أما عن قصة ادعائه النبوة فلقد انقسم فيها الباحثون إلى مؤيد ورافض فالفريق الأول استند في ادعائه على بيت المتنبي نفسه الذي يقول:

أنا في أمة تداركها الله ❖❖ غريب كصالح في ثمود

أما الفريق الأخر فيذهبون إلى أن أحمد أقام في نواحي حمص فأثار فتنة بين الأعراب ودعاهم للإمتناع عن دفع الضرائب ـ نظرا للأوضاع التي كانوا يعيشونها ـ فأخذه لؤلؤ والي حمص واتهمه بالتنبؤ ثم سجنه مدة فلزمه منذ ذلك الحين هذا اللقب "المتنبي". وإن كان أحمد نفسه ـ كما تقول بعض الروايات ـ يكره هذا اللقب ولايتكلم به.

وإن كان ولا بد من رأي في هذه المسألة فإني ها هنا أذهب إلى مناصرة الفريق الثاني ـ النافي للإدعاء ـ وهذا لعدة أسباب أهمها:

1. لأن حجة الفريق الأول في الحقيقة هي حجة عليهم وليست لهم لأن البيت عبارة عن تشبيه والتشبيه يستوجب مشبه وهو المتنبي ومشبه به هو النبي صالح لكن الخطأ في الفهم كان مع وجه الشبه. فمن غير

1. موهوب مصطفاي: المثالية في الشعر العربي. ديوان المطبلوعات الجامعية الجزائر 1982.ص 696.

المعقول أن يتساوى المشبه والمشبه به في أوجه التشبيه فلا بد من اختلاف بينهما وإلا لما كان هناك تشبيه. فالتشبيه عند البلاغيين هو أن تشبه شيء أصغر بشيء أكبر وليس بشيئين متساويين. ومن هنا شابه أحمد النبي صالح في غربته بين أهله وليس في نبوته كما فهم هؤلاء.

2. أن القرآن والسنة كانا المعلمين والمدرسة الأولى التي ترعرع أحمد في أحضانها وهذا ما يبعد عنه هذه التهمة.

3. قرب الفترة التي عاش فيها أحمد من مرحلة الوحي فالناس كانوا لا يزالون يعيشون على أخبار الوحي وأقوال الرسول ومن بينها حديثه المشهور والحاسم في هذا المجال "لا نبي بعدي" ولا أظن أن أحمد كان يجهل هذا بل لا أظنه أنه كان يجهل أن الناس تعي هذا جيدا وتحفظه.

4. أما عن أخلاقه" فلقد حدث علي بن حمزة قال بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة وذلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط. بلوت منه ثلاث خلال مذمومة وذلك أنه ما صلى وما صام ولا قرأ القرآن"[1] ثم البرقوقي في شرحه هذه الخصال فيقول: "أما هذه الأخيرة فأني أظن الراوي يريد أنه ما قرأ القرآن تهجدا وتعبدا وإلا فإن مثل المتنبي في فضله وأدبه ودهائه لا يفوته أن يقرأ القرآن الكريم ويتدارسه ويستظهره وأي قيمة لأديب لم يقرأ القرآن"[2].

---

1. عبد الرحمان البرقوقي: شرح ديوان المتنبي ج1، ج2. 1348هـ 1930م المطبعة الرحمانية بمصر لصاحبها عبد الرحمان موسى شريف. ج 1.
2. عبد الرحمان البرقوقي: شرح ديوان المتنبي.

وعموما فإن أحمد كان - ومنذ صغره - ذا طموح وزهو وكبرياء لايشرب خمرا ولا تطيبه النساء بل كان شخصية عربية قوية فكانت حياته لذلك زاخرة بكل ما يجلب له الحب والإشفاق والإجلال من قوم وبكل ما يجلب له الحسد والبغض والعداء من آخرين شأنه في ذلك شأن كل عبقري عظيم.

صفات ترعرعت مع أحمد وحافظ على صدقه وقوله حتى آخر ثانية من حياته. تلك اللحظة الحاسمة التي خرج عليه فيها فاتك الأسدي ومعه ثلاثون فارسا برماحهم وسيوفهم. فهل يهرب من هذا الموقف لينجو بنفسه وهو القائل.

وإذا لم يكن من الموت بد ❖❖ فمن العجز أن تموت جبانا

فأدار فرسه على الفور نحو أعدائه وقاتل بشجاعة حتى أصابه سهم قاتل في صدره فسقط عن فرسه مضرجا بالدماء. كان ذلك في سنة 354 في مكان قرب دير العاقل أوالنعمانية على بعد بعض الكيلومترات من العاصمة بغداد.

ب . نسبه :

إن المتصفح لديوان أحمد بن الحسين من أوله إلى أخره فسوف لن يجد أثرا لتلك الأسرة التي أنجبته. فهل كان ذلك لأنه لا يعرفها أم لأنه كان يرى في الانتساب إلى الأمة العربية كلها خير بديل لذلك. هذه الأمة التي كانت قبل أيام من مجيئه نبراسا يهتدي به الأمم ومنبع حضارة إسلامية عريقة. الحضارة التي تعالت أصواتها في كل البقاع ونشرت أضواء الإسلام في كل ربوع المعمورة. خصوصا وأنه يراها تحتضر بين يديه وعلى يد أمم لم تكن معروفة من قبل.

وما وصلنا إذن من أنباء هذه الأسرة كان بلسان الرواة وليس بلسان الابن الوحيد والمدلل بالنسبة للأسرة. فعرفنا من خلالهم أن الأسرة كانت متخلفة

المعيشة يحكمها الحسين وينفق عليها مما كان يقبضه من عمله المتمثل في السقي. أما الأخبار الواردة عن أمه فأقل أيضا وما روى عنها أنها كانتا همذانية من أسرة كريمة في الكوفة.

لكن المهم من كل هذا هو أن أحمد فقد والديه وهو في سن مبكرة وتكلفت به جدته. وخلو ديوان أحمد بن الحسين من ذكر أسرته ليس حجة للطعن في نسبه. فالبحتري مثلا قبله جاء ديوانه هو الأخر خاليا ومن الحديث عن أبيه أو أمه أو حتى من بكائه عليها لما توفيت فهل نحكم على ذلك بأن البحتري أيضا لم يكن يعرفهما. والمعروف أيضا عن أحمد أنه كان كثيرا الخصوم " ولو أنه كان مدخول النسب لأتوه من هذه الثغرة مرارا وكل ما رموه به أن أياه كان سقاء يبيع الماء للناس وليس في هذا ما ينفي نسبه العربي"[1].

والراجح هنا هو أن أحمد لم يرث أبويه حين توفيا قبل أن تتضح شاعريته أي حينما كان صبيا فلما كبر كره أن يعود له بعد طول مدة و فاتهما. لأنه يرى في ذلك تكلفا وصنعة. كما لا يفوتنا أن نشير هنا إلى محاولة عبدالغني الملاح في كتابه "المتبي يسترد أباه" حين حاول أن ينسبه إلى محمد المهدي المنتظر أو ما يعرف بالإمام الثالث عشر. وتبقى الفرضية قائمة إلى أن يثبت العكس.

لكن الثابت في كل هذا هو أن أحمد لا يريد أن ينسب نفسه إلى رجل أو إلى امرأة بل أراد الانتساب إلى البأس والشدة والمروءة والنجدة الصفات الحاضرة الغائبة في العصر العباسي. نبراسه في ذلك قول الشاعر:

ليس الفتى من يقول كا أبي ❖ إنما الفتى من يقول اليوم هأنذا

1. محمد مندور: فصول في الشعر ونقده، ص 73.

- **تقويم:**

في ظل أجواء سياسية مكهربة أهينت فيها القومية العربية في ظلها الحطاب مثلما الشأن مع مؤسسة الدولة البويهية وحكم فيها العبد الأسود مثلما الشأن مع كافور الأخشيدي. في ظل أوضاع اقتصادية متردية كان الإقطاع والمجاعة وارتفاع الضرائب عناوين بارزة لها وفي ظل مجتمع مفكك يشكله خليط من الأمم كالعرب والفرس والروم - حتى أصبح فيه من الصعب أن تعزل العربي عن غيره ـ وفي وسط أسرة متواضعة ومتواضعة جدا. وُجد أحمد بن الحسين فكانت الأقدار قاسية عليه جدا منذ صغره فاختطفت منه أمه في وقت كان في أشد الحاجة إليها و تبعها أبوه وهو لا زال صبيا فذاق مرارة اليتم وما تولد عنها من مضايقات لأبناء الطبقات العليا فراح يتعلم من الحياة كما يتعلم من الكتب فكان يحارب مصاعبه العائلية ويدللها بقوة إرادته وثقته بنفسه ومن هنا كان تفرده ووحدانيته وألصالته فكان لا فرق بين أن تراه أوتسمعه.

خرج أحمد إلى الوجود فوجد "ملك عظيم ينقض وسلطان هائل ينهار وقوم يتهالكون على ذلك الملك وإنقاض هذا السلطان. فإذا ولد في هذه البيئة صبي ذكي القلب مرهف الحس رقيق السيرة التي تكون منه هذا الشخص الذي يعرف المتنبي"[1].

1. طه حسين: مع المتنبي. ص 38.

"وإذا كان يسيرا أن نضغط المتنبي في كلمات وهو جد عسير نقول إنه شاعر التمرد والتوحد واحتضان الذات. شاعر المجابهة واللاهروب أمام العالم الهرم"[1]. ولنا في شعره أصدق تعبير عن نفسه وعن أناه الطاغية.

obeikandl.com

1. خليل شرف الدين: **المتنبي**. ص 8.